بعد اربع سنوات من التضحيات :

لابديل عن نظام وطني على اسس جديدة

لم يبدأ الصدام الاخير بين القوات السورية ، العاملة في اطار قوات الردع العربية ، و « الجبهة اللبنانية » في الاول من تموز الحالي ، بقدر ما كان امتدادا لتعارضات سياسية وعسكرية ، اتخذت في السابق درجات مختلفة من الحدة تناسبت مع اختلاف حدة التعارض بين موقفي ومخططي القوتين ، ومع الظروف العربية والدولية المحيطة .

واسباب الصدام الحالي ، باعتباره تجددا للصدامات السابقة ، باتت واضحة من خلال مواقف الطرفين الرسمية وشبه الرسمية ومن خلال الشكل الذي توصلت اليه الحرب الاهلية حيث منعتها العوامل العربية من بلوغ نهايتها .

ويمكن الى حد بعيد سبر اسباب الصدام بتعارض مفهومي او مشروعي القوتين المتصادقتين لاعادة بناء النظام اللبناني وتحديد دوره المستقبلي في المنطقة ، فليس صدفة ان يتفجر الصراع الاول في ثكنة الفياضية حول موضوع الجيش ، كمؤسسة رئيسية يرتكز عليها النظام ، ويتفجر الصراع اخيرا بعد انتهاء الصلاحيات الاستثنائية للحكومة بيوم واحد دون اقالة الضباط المتعاملين مع العدو الصهيوني والضباط المعروفين بانتمائهم او ارتباطهم بالجبهة الانعزالية ، ويتركز التصعيد الاعلامي طوال هذه الفترة حول قضية سعد حداد والشدياق وضرورة بناء جيش وطني بينما يتمسك الطرف الانعزالي بجيشه الطائفي .

لقد عبرت القوى الفاشية عن مفهومها « للبنان الجديد » منذ فترة طويلة وفجرت الحرب الاهلية وعملت خلالها وحتى الان على ترسيخ هذا المفهوم ونقله الى حيز التطبيق العملي واعتمدت لذلك اساليب عديدة ابرزها :

اولا : التعبئة الاعلامية الفاشية التي ارتكزت على اعتبار ان اللبناني هو انسان متفوق ومتميز حضاريا عن « الحضارة العربية الاسلامية» المحيطة به ، وجعلت عبارة لبناني لا تشمل جميع مواطني لبنان بدرجة واحدة فهناك « اللبناني الصميم » وهو يجب ان لا يكون مارونيا فحسب بل مارونيا مدافعا عن الطائفية المارونية اي عن « تفوقها الحضاري » ووجودها « كشعب قائم بذاته » . وبالطبع اعتمد هذا الاسلوب الطائفي ، المطابق لاسلوب التعبئة الصهيونية ، الوجه الاخر من اساليب الحركة الصهيونية وهو تصوير المحيط العربي بصورة التخلف والهمجية الذي تدفعه غريزته او حسده الى القضاء على هذه « الزهرة الحضارية المتفتحة » .

واستطاعت الجبهة الفاشية باستغلالها ظروف الحرب الاهلية وباستعمالها الاساليب الاعلامية - التعبوية المشابهة التي تمتد جذورها الى ايام الاستعمار ، ان تضع الحجر الاول في بناء نظامها الفاشي - الطائفي - ونظرة سريعة الى ادبيات القوى الفاشية واعلامها تؤكد ان صحيفتي « العمل » و « الاحرار » وصوت « الكتائب » لا تخلوان في اي يوم من اثارة النطرق ان تحت شعار « لماذا يدفع المسيحيون الثمن » ! او ان « العرب يسعون للقضاء على الحضارة اللبنانية » ، ونداء شمعون ايضا ، ثم نداء « الجبهة اللبنانية » الى العالم المتحضر تضج بالروحية والتعابير الشبيهة .

وبالطبع لسنا هنا بصدد تفنيد هذه الحملة التعبوية ، ولا بصدد ابراز زيف حضارة « الجبهة اللبنانية » التي تركت بصماتها على تل الزعتر ، والكرنتينا والمسلخ واهدن ... انما نؤكد فقط على اهمية هذا البند بالنسبة للمخطط الفاشي الذي سعى الى تأمين قاعدة له عن طريق الخداع والارهاب (الارهاب المباشر او التخويف بالمحيط العربي « المتوحش ») فشكل اساسا له في التهويل بورقة التقسيم من جهة وفي الامتداد للسيطرة على لبنان من جهة ثانية .

ثانيا : السيطرة على النظام من خلال بناء المؤسسات وضمان الهيمنة فيها للقوى الفاشية ، ومن خلال احتفاظ هذه القوى بمؤسساتها الخاصة كامتداد لمؤسسات النظام وكضاغط اذا لزم الامر . ونجحت الجبهة الفاشية ، نتيجة انقلاب موازين القوى بفضل التدخل العربي ، في السيطرة شبه التامة على اهم مؤسسات النظام « الجديد » وهي الجيش ، واثبت هذا الجيش ولاءه لها في الجنوب من خلال حداد وشدياق ، وفي الفياضية ، وفي تسهيل عملية اهدن ، وفي المشاركة بالمعارك الاخيرة وفي مد الانعزاليين باسلحته الجديدة وفي مقدمتها صواريخ « ميلان » الفرنسية . ونجحت ايضا في السيطرة على بعض المؤسسات الاخرى وسعت الى تقسيم ما لم تقدر على احتوائه منها . كالجامعة اللبنانية التي تسعى « الجبهة اللبنانية » الى تحويلها الى معمل لانتاج جيل فاشي جديد .

وتصرفت الجبهة الفاشية منذ حوالي السنتين على انها الدولة الفعلية والحامي « للشرعية » فاحتفظت بثكناتها وبجيشها النظامي وبالميليشيا وبمرفئها ومطارها في جونيه وحامات وبأمنها الذاتي ، وشعرت اخيرا ان بمقدورها ان تخطو خطوة جديدة فرفضت تشكيل حكومة لا تكون لها فيها السيطرة التامة او شبه التامة . وانطلقت لتعزز وضعها على ارض الواقع للوصول الى هذا الهدف ، « فشددت » ميليشياتها قبضتها على الجنوب بعد ان تسلمته من « اسرائيل » وانطلقت قواتها النظامية وشبه النظامية لتلقن فرنجية ، الذي لم يعد « لبنانيا اصيلا » ، درسا يفتح امامها ابواب الشمال . واعتمدت اخيرا في تحركاتها على تحالفات تراوحت بين الرجعية العربية و « اسرائيل » واعتبرت في الاخيرة قاعدة ثابتة للدعم لتطابق التفكير والاهداف .

ومن الطبيعي ان فشل الانعزاليين في خطوات معينة ، لا سيما الشمال بعدما ادت اليه مجزرة اهدن ، لا يعني تخليهم عن مخططهم ، فبعد اربعة ايام من بدء الصدام الاخير مع القوات السورية اعلن شمعون مجددا مطالبته بخروج الردع وتسليم الامن الى الجيش والاحزاب اللبنانية الرئيسية وهي بنظره حزبه وحزب الكتائب .

الوضع في المنطقة ودور النظام السوري فيها . ومن هنا فان « المبادرة السورية » التي دخلت تحت شعار « امن لبنان من امن سوريا » و «امن سوريا من امن لبنان » وجدت نفسها بعد حوالي سنتين امام نقيض اخر هو محاولة « الجبهة اللبنانية » انشاء كيان صهيوني جديد في المنطقة يهدد دعاته منذ الان باثارة الفتن في وجه النظام السوري وفي داخل سوريا بالذات ، فحديث الجميل في الثاني من تموز عن ان استمرار المعارك « سيدفع بنا الى التقسيم » وهذا الامر سيخلق الويلات للدول العربية و « القريبة منها خاصة » ليس التهديد الاول ولا الاخير فقد سبقه تهديدات مشابهة من اطراف الجبهة اللبنانية باثارة النعرات الطائفية في سوريا .

وانشاء كيان طائفي فاشي في لبنان متحالف مع « اسرائيل » سيخرج لبنان من « العلاقات الخاصة » التي تسعى سوريا الى اقامتها معه والتي على اساسها كانت المبادرة السورية الشهيرة يوم كانت الحركة الفاشية في لبنان تواجه مصيرها الصعب ، وهذا الامر سيعني اضعاف موقف النظام السوري على صعيد المنطقة ووضعه امام ضغوطات جديدة تؤدي بدورها الى فرض تنازلات جديدة في اطار ما يسمى بتسوية الشرق الاوسط ، وهي تنازلات قد لا يستطيع النظام السوري تقديمها مما سيدفع الى تأزيم الاوضاع في وجهه .

الرئيسان سركيس والاسد

الموقف السوري

ومن الطبيعي ان يتعارض هذا المشروع الفاشي مع القوى الوطنية اللبنانية ومفهومها للبنان الغد ، غير ان هذا المشروع يتعارض ايضا مع مصالح واهداف النظام السوري الذي يترك الوضع في لبنان بصماته عليه سلبا ام ايجابا ان على صعيد الاوضاع داخل سوريا او على صعيد

وهذا الامر عبرت عنه التصريحات السورية المتكررة التي ركزت خلافها مع الطرف الانعزالي، لا حول الطبيعة الطبقية للنظام ولا حول الحفاظ على « الشرعية » الحالية بل حول جانب التعامل مع العدو الصهيوني ، كأحد نتاجات الطبيعة الفاشية - الطائفية للطرف الانعزالي . فقد اكد المسؤولون السوريون تكرارا ان هدفهم في لبنان هو تثبيت سلطة « الشرعية » واقامة العلاقات الخاصة مع لبنان وفي طليعتها قضية الامن .

موقف السلطة « الشرعية »

لقد لعبت السلطة « الشرعية » منذ انتخاب سركيس دور « الموظف » الامين على مصالح القوى الفاشية ، ولم يسع رئيس الجمهورية طوال الفترة الماضية الى الخروج من هذا الاطار على الرغم من دعم النظام السوري له ووضع قوات الردع بتصرفه ، والسبب يكمن في ان سركيس جاد ليمثل مصالح الطبقة التي تنتمي اليها قيادة القوى الفاشية اللبنانية وهو بالتالي لا يجد نفسه متناقضا معها وان بقي احتمال التعارض في بعض النقاط واردا في المستقبل ، ويكمن ايضا في ان القوى الفاشية تمكنت من الهيمنة على اغلبية الفئات المسيحية ضمن تركيبة طائفية للنظام اللبناني لا تسمح لرئيس الجمهورية الا ان يجاري هذه القوى او ان يحل محلها .

وقد اكد سركيس وبعض اعضاء الحكومة على الاقل وبطرس في الطليعة هذا الواقع العلمي ويكفي ان نستعرض المشاورات التي اجراها سركيس مع « قادة البلاد » منذ وجوده في السلطة لنستنتج ان مقابلته للحركة الوطنية (الطرف اللبناني الثاني في النزاع) وبعض اعضائها لم يتعد اصابع اليد الواحدة بينما لا يمر اسبوع واحد دون الاجتماع مع احد اقطاب الجبهة الفاشية ، وتتكثف هذه الاجتماعات والمشاورات عند المنعطفات الحرجة في حياة الوطن . والطلب الوحيد الذي طلبه الرئيس سركيس في لقائه الوحيد مع وفد الحركة الوطنية كان ضرورة الرضوخ في الجنوب لشروط « الجبهة اللبنانية »لانها الاقوى !

وامام هذا الواقع يبقى السؤال الرئيسي : لماذا تتخذ الصدامات طابعها المحدود ؟ وما هي افاق الصدام الحالي ؟

من الواضح ان محدودية الصدامات الماضية والحالية نابعة عن طبيعة التعارض الذي يحكمها وعن طبيعة موازين القوى المحلية والعربية والتي تجعل الموضوع مطروحا على صعيد تحجيم القوى فقط ، ففي الوقت الذي تطالب فيه الجبهة الفاشية بخروج قوات الردع وتدعي حقها في السيطرة على كامل النظام ، يؤكد الاعلام السوري على ضرورة التحجيم ، تحجيم القوى التي تقف في وجه بناء نظام سركيس ضمن مفهوم العلاقات الخاصة مع سوريا ، ويبدو ان قمة اللاذقية قطعت شوطا في التأكيد على هذا الجانب كضرورة لتثبيت النظام بشكل يبعد عنه شبح سيطرة الفاشية التامة ويجعله من جهة اخرى اكثر ملاءمة للمفهوم السوري ... ولكن هل تتم الامور دائما على اساس الامنيات ؟

من الواضح ان طبيعة المعارك التي خيضت والتي تخاض ، وطبيعة ميزان القوى يجعل من الصعب حسم الصراع سريعا ، فالمعارك السابقة التي دخلت تحت هذا العنوان ، وان ضمنيا ، في الفياضية وعين الرمانة ، اثبت انطرف الفاشي بعدها انه يستطيع ان يجير نتائجها لصالح مخططه ، وذلك بفضل التعبئة النفسية لمناطق سيطرته ضد كل ما هو عربي ، وابقاء الجماهير المسيحية تحت هذا الكابوس ، وبفضل تحالفه مع الكيان الصهيوني وسيطرته على الجيش